مطرانيـــة ملـــوى وانصـــــنا والاشـــمونين

الجســد والجنــس

من منظــار مســيحى

كوستى بندلى

بطرانية ملوى وإيصنا والأشمونين

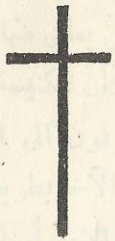

الجسد والجنس

الطبعة الثالثة

كوستي بندلي

مقدمة

هذا الكتيب الذى بين يديك عمل نافع للشباب . لأن قضية الجنس والجسد والحب من أصعب الأمور التى يعانى منها شبابنا ويعالجها البعض بطريقة غير روحية مدعين أن الكنيسة يلزمها أن تتطور مع إتجاهات العصر السائدة فينحرفون الى الإباحية ويبتعدون عن الوقار المسيحى، ويعالجها البعض الآخر بطريقة منزمتة مدعين ان أفضل وسيلة للمواجهة هى إحتقار الامر أو إهماله..

أما المفكر الروحى الأخ العزيز الأستاذ كوستى بندلى فهو إنسان ملهم أعطاه الله بصيرة روحية جعلته يكتب لهذا العصر بأسلوب يتميز بالعمق والانفتاح ، بالروحانية غير الوعظية والإفادة من معطيات العلوم الانسانية وبالأخص علم النفس الذى تخصص فيه وبرز كدارس متعمق. وقد حرصت على أن أركز أهم مبادىء الكاتب - بقدر ما اسعفتنى قدراتى المحدودة - فى صفحات قليلة لتكون خاتمة للمحاضرتين اللتين ألقاهما الاستاذ كوستى فى القاهرة والاسكندرية فى الصيف الماضى . الله السماء يبارك اخانا العزيز ويبارك كل إنتاجه ويبارك كل عمل وكل خدمة لمجد اسمه العظيم القدوس أمين .

الأنبا بيمن

المحاضرة الأولى

المسيحية والجنس

[ألقيت فى رابطة القدس
بالفجالة بالقاهرة مساء
الثلاثاء ٥/٩/١٩٧٢]

سأجتهد لأبين بعض الأفكار الرئيسية التي يدور حولها الكتاب الذي وضعته مؤخرا عن « الجنس ومعناه الإنساني » . موضوع الجنس مطروح بحدة في أيامنا ، والآراء حوله متباينة ، فهناك من ينادي بتحرير الجنس من كل قيد ، وهناك بالعكس من يطالب اخضاعه للتقاليد باسم الأخلاق والفضيلة .

وينطلق الموقفان من افتراض مسبق واحد ، وهو أن الجنس طاقة غريزية وحسب ، فيطالب البعض باطلاقها على سجيتها ، ويطالب البعض الآخر بحصرها ضمن الشرائع والتقاليد .

يحاول الكتاب إعادة النظر فيما يستند اليه الموقفان ، إنه يتساءل ، هل يصح إعتبار الجنس طاقة غريزية ليس إلا ؟ ويحاول الكتاب الإجابة عن السؤال بشكل موضوعي ، بملاحظة واقع الجنس للإنسان . كما يتضح هذا الواقع من خلال كتابات الذين إنكبوا على الكتابة من علما النفس والأدباء ، إستناداً للأبحاث

يتضح أن الجنس وإن كان أحد وجوهه حاجة غريزية ، إلا أنه يتخطى الغريزة إذ نجد له طابعاً إنسانياً فريداً ، ليس هو مجرد إزالة توتر عضوي، مثل الجوع والعطش لأنه مرتبط بعوامل نفسية تلعب دوراً بالغ الأهمية، والميل الجنسي لا يسعى لمجرد التناسل لأن الرغبة الجنسية عند الإنسان ليست مقيدة بأزمنة الخصب مثل الحيوان.

فرادة الجنس عند الإنسان هو سعيه لتحقيق وحدة عميقة ولقاء صميمي ، بين شخصين من خلال جسديهما ، ويحس المرء بنشوة لأنه نجا من عزلته وإكتمل بالآخر. الجنس يجب أن يحقق التداخل الصميمي بين كائنين . تلك الصلة العميقة يعبر عنها في اللغة كجماع ، ووصال . الجماع لا يتم إلا بين شخص وشخص . هذا هو الفرق بين الجنس والجوع . الجوع يدفعني الى الاستيلاء على شيء ، واستهلاكه ، كي أسد به رمقي ، أما الميل الجنسي فيدعوني للاتصال بشخص لأنجو من عزلتي . ولكن الجنس مهدد أبداً بالانحراف الآخر، وهو استعمال الآخر كشيء لإزالة توتر وبلوغ لذة ويغيب كشخص، ويصبح مجرد جسد يستمتع به لا كائناً فريداً يجد ذاته يلاقي من خلال الجسد .

موقف المجنون ينظر الآخر كمجرد مصدر للذة ، ولا يهمه من الآخر سوى اللذة التي يجتنيها منه وحسب فإذا ما أروى غليله منه ، سعى لجسد آخر يجدد به لذته وهكذا.

إن سعي الماجن يحول دون رؤيته لفرادة الشخص الآخر، ولا يرى في الآخر سوى أجسادا قابلة للتبادل مثل تبادل لفافات الفاكهة، وفاكهة تستبدل بفاكهة أخرى. وهو لا يسيء للآخر فحسب، بتجريده من صفته الشخصية وانحداره لمستوى الأشياء بل يسيء للماجن نفسه، ذلك أن أمنية الجنس، هي اللقاء الصميمي والتلاحم بين شخص وشخص لكن الماجن لا يلاقي أحداً من تعدد الاجساد، ولا يصادف سوى لذته. لا يتعشق سوى ذاته ويبقى أسير عزلته، وشعور بالفراغ والتهالك على اللذة يحدر بها ذاته، وهذا يدفعه للتهالك على اللذة فيتخبط في دوامة، ساعيا وراء سراب سعادة لن يبلغها لأنه يطلبها في غير موضعها.

الماجن ليس هو فئة معينة بل تلك النزعة إلى المجون كامنة في كل منا. الماجن يفشل في السعادة التي يصبو لها الإنسان من خلال الجنس لأنه يبتر الجنس من بعده الإنساني في اللقاء بآخر. الماجن يفرط في استعمال الجنس مع أنه بالعكس مقصر فيه. لأنه لا يذهب فيه لنهاية المطاف للمرمى البعيد، وما الاكثار الكمي عنده سوى تعويض للنقص الفادح في ممارسته، شأنه شأن من يحاول علاج جزعه النفسي بالنهم في الأطعمة.

يتضح لنا أن الجنس لا يبلغ غايته الإنسانية إلا إذا تجاوز

بمجرد السعى للذة مغلقة فأصبح سعيا إلى الآخر ، من حيث هو آخر ، أى من حيث أنه هو مهم فى حد ذاته ، من حيث هو كائن فريد ، ليس بمجرد جسد قابل للتبادل بجسد آخر . بمعنى آخر ، الجنس لا يكتمل إلا إذا أصبح حبا . ليس بالمعنى الذى يعطيه حب الماجن الذى يقول أنى أحب مثل من يقول أنى أحب فاكهة معينة قاصدين الشهوة لإستهلاكها لنلطف بها أفواهنا الحب الذى به يكتمل الجنس هو أن يعتبر كل من المحبين أن لذة الآخر وسعادته وخيره مهم كلذته وسعادته وخيره ، هو ، والمحبوب كائن فريد غير قابل للتبادل مع كائن آخر ، عند ذاك يخرج كل منهما من عزلته ، فيكتشف الآخر كغاية وليس كمجرد وسيلة . وعند ذلك يكتشف كشخص تقوم معه علاقة من شخص آخر ، واللقاء الجنسى لا يصبح لقاء عزلتين متقابلتين بل لقاءاً بالعقل ، جماعا ، ووصالا بالحقيقة ولا تغلق اللذة بل تتخذ كل أبعادها فتصبح لقاء فى اللذة وتتحول إلى سعادة .

هذا الحب الذى يجمع بين شخصين ، لا يستقيم إلا إذا كان فريداً ، لأن الشخص فريد ، ومستمر فى الزمن لأن الشخص ذو بعد زمنى ، فالحب فى إنطلاقته يصبو للوحدانية أى أن المحب يصبو لمحبوبته فيقول لها إنى لن أحب سواك (الفرادة)

أبداً (البعد الزمنى) . الإنطلاق لا يتم إلا بالإرادة لأن الشعور يعلو ويهبط ، لذا فالحب الأصيل ليس تلاطماً بين شعورين بل لقاء شخصين على كل الأصعدة : حسى وشعورى وروحى وعقلى . هذا اللقاء يكرسه وعد يجعله بمأمن من تقلبات الشعور يلتزم به كل من المحبين بكيانه كله تجاه الآخر . وما الزواج بمفهومه الأصيل ، سوى إعلان هذا الوعد احتفاليا أمام المجتمع ، مما يجعله أكثر رسوخا . قيمة الزواج الأساسية ليس فى كونه عقداً إجتماعياً بل فى كونه تكريسا لهذا الوعد الذى يتعهده المحبان ، أن يلتزما طريق الحب . هذا يعنى أن عقد الزواج ليس غاية بحد ذاته بل هو مجرد الإطار الذى فيه يعاش الحب ويغذى أبداً ويزداد أصالة وعمقاً باجتيازه خبرة الحياة ، والأمانة الزوجية الحقة لا يمكن أن تكون نتيجة عقد اجتماعى وحسب . لا يمكن لهذا العقد أن يحمى وعد المحبين إلا إذا اقترن بفعل مستمر من كليهما . فعل يحافظان به على الحب وينميانه . « الحب خلق مستمر » كما قال أحد كبار علماء النفس المعاصرين .

أما إذا استكان الزوجان لعقد الزواج . واعتبر الزوجان الزواج صك ملكية فهما بذلك يجعلان منه مقبرة للحب كما هو الحال فى كثير من الأحيان . الزواج حب معطاء يعطى على قدر

ما يأخذ لا بل أكثر مما يأخذ ، الحب يفترض نضوجا على الصعيدين النفسي والروحي ، فعلى الصعيد النفسي ، يستعرض الكتاب مستنداً لمعطيات التحليل النفسي المعاصر ، مراحل المسيرة التي تقود الكائن عبر مراحل حياته ، من إستيلائيه الطفولة ، التي فيها ينظر الآخر من خلال حاجته الخاصة ، الى معطائية الراشد بالفعل الذي يهتم بالآخر لأجل شخصه . يمكننا ان نفهم المعنى الحقيقي للعفة ، هذه الفضيلة التي كثيرا ما شوهت كما شوه الجنس والحب، حتى أصبحت مرادفة للعجز والخوف. يبين الكتاب أن الخوف من الجنس ، والتهرب من مواجهته ، وإخضاعه للأوامر والنواهي التي يفرضها المجتمع والدين هو تزييف للعفة ، فالعفيف هو من لا يخاف الجنس ويتعهده بوعي ومسئولية مرجها إياه بقناعة في خط الحب ، العفيف حقا هو من يحرص على إعطاء الجنس كل أبعاده بممارسته في خط الحب وفي الحب فقط ، عفة كهذه يمهد لها منذ الطفولة بتربية مبنية ليس على قمع بل على تهذيبها وتوجيهها وليس على تجاهل تساؤلات الطفل بل مواجهتها في بساطة وصراحة .

الباب الأخير فى الكتاب يتحدث عن « آفاق الجنس » ، يبين أستنادا على خبرة البشر عبر العصور قديمها وحديثها - الخبرة ، التى عبرت عنها الأديان والآثار ، أن الجنس يسعى لسعادة مطلقة تظهر بشكل حاد فى استقطاب مطلق للانسان ؛ كما قال أفلاطون وردد من بعده الفيلسوف برديف ، أن العشق هو إشتهاء الأبدية ، هذا ما أضفى على الجنس طابعا قدسيا كرسته الأديان القديمة وعاد فى هذه الأيام عند المسيحيين . من خلال الجنس يصير الانسان إلى التألية ، يحاول إستعادة الفردوس المفقود . ولكن عبثا يحاول لأنه يعود فى تلك الحالات خائبا إذ يصطدم بمحدوديته الكيانية . المطلق لا يبلغ بالجنس وإن كانت كل خبرة صميمية تهيئه له . لا يبلغ المطلق إلا إذا هو أنحدر إلينا ، هنا يترك الكلام للايمان . فالمسيحى يؤمن بأن المطلق أتى إلينا فى شخص يسوع المسيح ورفعنا إليه كما ردد الآباء « لقد صار الله انسانا ليصير الانسان الها » . بالمسيح يصبح الله حاضرا فى الاتحاد الزوجى ، هـــذا معنى سر الزواج ، أن المسيح حاضر فى الزواج ليزرع فى صميم الجنس بذور الأبدية ، هكذا يتاح الحياة فى الجنس فى خط الملكوت حتى القيامة ، إذ يتحرر بها الجنس من الغريزة والشهوة ليحقق مرماه البعيد فى اتحاد الله بالبشر والبشر بعضهم ببعض . من المؤمنين

من يجتهد أن يعيش من الان فى حياة القيامة ، وكثيرون يشتهون الحياة الفردوسية من الآن وذلك بالنعمة المكرسة يمتنعون عن الجنس ، لا خوفا ، ولكن لأنهم يصبون إلى مرماه البعيد ، إلى تحقيق الأبدية هنا . إنهم لا يتزوجون لا لكى ينطوون على أنفسهم بل لكى تتأجج نفوسهم بمحبة الله وليحضنوا بحبهم غير المحدود هموم البشر ومشاكلهم وآلامهم .

أسئـــلة :

س: نسمع فى بعض سير القديسين عن الزواج والبقاء بعد ذلك كعلاقة اخ وأخت .. ما رأيكم ؟

ج : أعتقد أنه لا حب زوجى بدون كل عناصره ، وعنصر أساسى هو عنصر الجنس . فهذا زواج غير مكتمل ، قد تكون هناك دوافع روحية ولكن زواج مثل هذا ينقصه عنصر الجنس هو غير مكتمل .

س: ما هى الطريقة السليمة للحب قبل الزواج ؟

ج : هى أن يتعهد كلا الشخصين للآخر تعهداً نهائياً . ليس تعهداً عابراً ، بمعنى أنه لم يقبل به كشخص فريد إلى أن يرتوى منه

معتبراً أنه يمكن استبداله بشخص آخر .

الزواج هو أن يعلن أمام الملء أن كلا من هذين الشخصين يتعهد الآخر نهائياً ؛ إذن قبل أن يقرر كل من الزوجين أن يتعهد الآخر نهائياً ، لا يمكن أن يكون حبا مكتملا . العلاقات الجنسية معبرة عن الحب . ربما إكتمل حب ولم يتزوجا . لماذا؟ لأن الزواج إعلان أمام الملء بأن كلاهما قد تعهد الآخر نهائياً .

من متطلبات الحب أن ينتظر المحبان الزواج ؛ وفترة الخطوبة هى فترة إختبار للحب ، لا يكتمل بعد فتعابيره يجب أن تبقى غير مكتملة . يمكن وجود تعابير يغلب عليها الحنان وليس عنصر الشهوة قبل الزواج لكى يتجمع ويكتمل الحب ، أما فى الزواج فعلى المرء أن يحافظ على الحب بأن يحافظ على إرادة الآخر؛ ومظهر آخر هو الا يتحول الزواج لمجرد طلب اللذة أو مجرد عملية روتينية بل تعبير عن الحب واللقاء .

س: إذا كان الزواج هو مجرد إعلان للالتزام فما أهمية السر إذن ؟

ج : الكتاب ليس المسيحيين فقط بل لكل انسان يؤمن بالقيم الإنسانية . الفرادة المسيحية تظهر فى الفصل الأخير فقط . الأخلاق المسيحية هى الأخلاق الإنسانية الأصلية . المسيحى هو من كان انسانا، لذا لم أعرض لسر الزواج . إذا كان الزواج إعلان الوعد أمام المجتمع، فبالنسبة للمؤمن لا يليق فقط أمام المجتمع المدنى بل أمام المجتمع الروحى ، لان المؤمن لا يفصل نفسه عن الكنيسة ، بل يعلن تعهده أمامها . سر الزواج يمد الزواج بعناصر الهية إذ يجعل المسيح حاضرا فى الزواج بل يجعله مطهرا ومنقيا لهذا الحب . سر الزواج هو طريقة لزرع النعمة الإلهية فى قلب الواقع البشرى ليعود الحب لأصله الإلهى فيصبح على شكل حب المسيح للكنيسة .

س: ألا تعتقد أنه كلام نظرى عن الحب .. كيف يمكن تحويله لتطبيق عملى ؟

ج : الحب كما حددته ، هو واقع عملى ، وإنى أطلب أن ترجعوا لضمائركم ، إن لم يكن فى حياتكم لحظة يكتشف فيها الإنسان الحب كما قلته . أنا أؤكد - والتحقيقات العلمية تؤكد - أن الشباب المعاصر حتى فى الغرب يعرف الحب بهذا المعنى .

ان الاخر مهم فى حد ذاته ، ولكن لسوء الحظ واقع الزواج يرثى له إذ يقال بأنه ليس سوى ١٠ ٪ من الزيجات ناجحة ونسبة كبيرة من الزيجات تتحول إلى إنفصام فعلى - وأصبح الزوجان يعيشان أحدهما بجانب الآخر . ولكن الـ ١٠ فى المائة هذه الناجحة تشهد بأن الحب كما عرضته هو شىء واقع .

س : هل مفهوم العفة يعنى قمع الغرائز ؟

ج : أنا لا أؤمن بالقمع لأنه عملية سلبية ، لأنه بحد ذاته كل قمع قريب من الكبت ، مجرد موقف سلبى من الغريزة . هذا لا يكفى ... هناك عنصر لابد منه : جموح الغريزة ، نزعتها الأنانية الإستهلاك . يعترضه عنصر قمع .. وهو عنصر ليس إلا ، قصده توجيه الغريزة لتحقيق الهدف . الإنسان هو الحيوان الغريب الذى فيه يتجاوز نفسه بغرائزه .. الطريقة الفضلى هى عدم الإكتفاء بمجرد محاربة الغرائز بل التأكيد على تهذيب الغرائز لتصبح الغريزة منسجمة مع هدف اللقاء بالآخر . بنظرى العفيف الذى وقعت أن يرى امرأة فلا يرى سوى جسد فيهرب منه هو مثل الماجن تماما على نفس المستوى لأنه لا يرى فيها سوى جسد ، فالماجن يستغل هذا الجسد ؛ أما هو فيهرب منه . العفيف ينظر

للمرأة كشخص إنسانى .. انسان مثله ؛ عندما يصل لذلك تكون عفته قد اكتملت .

س : ما رأيكم فى قول الرسول بولس « أقمع جسدى وأستعبده » ؟

ج : الجسد فى الكتاب ، وكلمات بولس ، ليس هو البدن ؛ الجسد البيولوجى ليس الجسد بحد ذاته . الجسد الذى يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد ، هو هذه النزعة عند الانسان . الجسد يعنى الانسان ككل . ليس فى الكتاب المقدس الفكرة الأغريقية التى تفصل بين الروح والجسد . الفكر الكتابى ينظر إلى الإنسان كروح وجسد . الفكر التوحيدى وبولس الرسول يعنى النزعة فى الكيان البشرى ككل بنفسه وجسده إلى الإنغلاق والتقوقع . أى أن النزعة الأنانية الكامنة فى صميم الانسان هل التى تقمع .

س : لماذا يقول بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس « أما الشهوات الشبابية فاهرب منها » ؟

ج : الشاب تحديداً هو بمعنى المراهق من لم يبلغ بعد هذا النضج الكامل الذى ينظر للآخر كغاية وليس كوسيلة . الشاب ينزع إلى اعتبار الآخر كوسيلة لكى يحس بأحاسيس ومشاعر تسره ، يجنى منها نشوة . الآخر هو مجرد واسطة للمشاعر والأحاسيس، الآخر ملهاة ، الشهوة عنده ليست حباً لشخص بل ملهاة ، الآخر لاشريكا بل لهوا . بهذا المعنى يجب ان يمتنع المرء عن الشهوات . يطورها لتصبح حباً، لا لتزول بل لتتخطى ذاتها وتتحول إلى حب . النضج العاطفى عند المراهق هـــو عندما يستطيع أن يجمع فى ذاته الشهوة وانسان ويركزهما على شخص واحد .

س: مامعنى ان العفة المكرسة تجاور للمحدودية فى الحب ؟

ج: العفة المكرسة هى السعى لتحرير الحب من كل محدودية لانه فى حب الزواج يكون مشوبا الى حد بعيد بالحصر والملكية . زوجتى وأولادى وأنا أنحصر فى هذه الدائرة رغم أن الزواج هو ليتجاوز الانسان ذاته وليوسع حبه ولكن فى الزواج السعى للحصر والتحديد . العفيف المكرس هو تجاوز الحدود ويعمل لمرتبة ملائكية . لا يهرب من الحب . . التكريس الذى هو هرب من الحب لا يعتبر

تكريسا حقيقيا ، أما التكريس الحقيقى فهو تحرير الحب من كل محدودية والوصول اليه من كل حدوده .

س: كيف أن الحب موصل للابدية ؟

ج : نحن نعلم أن « الله محبة » ومن يثبت فى المحبة يثبت فى الله والله فيه أن كان الله محبة . ينتج عن ذلك أن كل الحب الانسانى الأصيل هو من الله ينبع ، ويتجه فى النهاية إلى الله . الحب يطلب السعادة المطلقة والكمال المطلق الذى لا يتم إلا فى الله حب الصداقة .. الوالدين والاولاد . كل حب إنما ينطلق من الله واليه يذهب ، الحب مرتبط بالأبدية الحب الجنسى شددت عليه لأنه أقوى شكل من أشكال الحب عند الانسان لأنه يجمع الانسان بكل كيانه ، بعقله وبجسده وبروحه وعواطفه وأفكاره وارادته ، كل ذلك يجتمع فى الحب المدعو جنسى إذا كان حبا أصيلا . الحب الجنسى هو أقوى شكل من أشكال الحب وهو بشكل خاص مرتبط بالأبدية . الكتاب المقدس لما اراد التعبير عن حب الله لشعبه فى هوشع ، نشيد الأناشيد ، الأناجيل ، ورؤيا يوحنا ، أفضل صورة يعبر بها الله عن إتحاده بالناس هى صورة الحب

الزوجى ، وهو مايدل على ارتباط الحب بالأبدية ، وبقدر مايكون المسيح حاضرا فى الحب بالصلاة .

س : « من أحب أبا أو أما . . أو زوجة أو أولادا اكثر منى فلا يستحقنى » كيف نوفق بين قولكم وحبنا لله ؟

ج : عندما نحب أبا أو أما أكثر من يسوع هذا لا يعنى أننا لا نحب الله لأنه ليست محبة إلا فى الله والله وحده يعرف كيف نحب . . ونحن لا نعرف الحب إلا إذا ما أحبنا الله . أما قول المسيح فهو لمن يحب ذاته من خلالهم ولكن يسوع يفهمنا أن هناك تكاملا بين حبه وحب الناس .

س : كيف يتم توجيه الغرائز والطاقة الجنسية توجيها سليما ؟

ج : تهذيب الغريزة الجنسية يكون بأن تسخر الغريزة للحب كيف يمكن أن يتم ذلك عمليا ؟ أعتقد أن المهم هو أن يستعد الإنسان للحب ، إنه ليس سوى أن الآخر مهم بالنسبة للإنسان ، بل يجب أن يتهيأ له الانسان أن نسعى ونعرف مشاعر الآخرين ، كل مايجعل الآخر مهماً لنا . الطالب الذى فى المدرسة لا يعلم الإهتمامات والمشاكل عند كل مهنة . كل طالب يسأل نفسه هل انا أعرف رفاقى ، هل

أعرف الأشياء التى تعذبهم . عندما يبدأ فعل هاجس الآخر وهو الذى يجب أن يبدأ من الطفولة ، هنا توجيه للعفة والجنس بصورة غير مباشرة . توجد أنماط أخرى كما قال فرويد أن نتسامى ونصعد .. الطاقة الكامنة فى الغريزة تستعمل فى عدة أهداف أخرى ، تتحول عن غاية الجنس ، لأنها طاقة مرنة لحد بعيد .. مثل مسابقات رياضية أو عقلية أو فنية أو اجتماعية .. علاقات مع الناس ، جهاد فى سبيل مجتمع أفضـــل ، يجب أن يكون لدى الإنسان اهتمامات حضارية كثيرة وهو ما يساعده على تهذيب الغرائز .

س : ما هو الفارق بين الحب والشهوة ؟

ج : أكيد . قد تتستر الشهوة وراء الحب وقد يكون الأمر ويقود التستر إلى زواج يكون مبنيا على الشهوة خاصة ، ويعتقد الزوجان أنه مبنى على الحب . وبعد فترة من الزمن يفشل الزواج لأن الشهوة تزول وعنـــد ذلك يكتشف الزوجان ، أو أحدهما ، أنه لم يكن فى حب للآخر . من الصعب إعطاء مقاييس عامة للتفريق بين الحب والشهوة . خاصة أن الحب لا ينفى الشهوة ، بل يتخطاها . السؤال هو إلى أى حد تم التخطى ، أو لم يتم ، كل انسان يجب أن

يكون واعيا وصريحا، ويكتشف هو علامات أن حبه تسيطر عليه الشهوة أم لا . إذا أحب فتاة ، يتساءل وقت تفكيره فيم يفكر فيها ، كيف يفكر . إذا كان وقت تفكيره لا يجد سوى جسد يجب أن يقتنع بأن حبه حب غير صحيح ، لكنه حب مزيف . ينبغي للانسان أن يكون صريحا مع نفسه حتى لا يخدع نفسه . ومن ناحية أخرى فإن الحب في أول عهده ، يلعب فيه عنصر الشهوة دورا مفرطا حتى في أحسن الإحتمالات وهنا يجيء دور الزواج حيث هو بداية للتحرير من طغيان الشهوة ، أكثر فأكثر . في الحياة الزوجية يكتشف الزوجان أن اللقاء الجنسي مفرح كلما تخطيا طغيان الشهوة .

س: كيف يختار الإنسان الأعزب الفتاة التي تلائمه ليكون بينهما زواج على أساس سليم ؟

ج: عن مقومات الحب قلنا أنه لكي يكون مكتملا يشمل عدة أصعدة : الصعيد الحسي ، أي أن توجد جاذبية حسية متبادلة ، جزء مهم منه . ناحية أخرى، التجاوب العاطفي أي أن تتاح عاطفته الآخر ، ويرتاح لوجوده . عنصر فكري بمعنى أن يكون هناك أفكار متشابهة ، أفكار مشتركة بين الشخصين والتبادل على صعيد الأفكار. الصعيد الروحي. المبادىء المشتركة والنظرة المشتركة للحياة .

المحاضرة الثانية

الجسدُ والجنسُ

[ألقيت بمعسكر العجمى
بالإسكندرية مساء الأربعاء
١٩٧٢/٩/٦]

أولا : المفهوم الحديث للجسد

لابد لى أن أبدأ حديثى بالتنويه بالمفهوم الذى يتخذه الجسد فى الفكر الحديث . ذلك المفهوم بعيد كما يبدو لى ، عن كل من موقفين متناقضين طالما تجاذبا الفكر الفلسفى ، ألا وهما الثنائية من جهة والأحادية من جهة أخرى .. فالمنظار الثنائى الذى تميزت به الأفلاطونية وجدده ديكارت ، كان يفصم بين الجسد والنفس جاعلا منهما كيانين مستقلين مع أنهما متعايشان، أما المنظار الأحـــادى فكثيراً ما إدعى بلسان فلاسفة القرن الثامن عشر مثلا ، أن النفس إنما هى مجرد مظهر من مظاهر الجسد ..

أما الفكر الحديث فإنه ، حتى فى التيارات المادية منـــه ، يتنكر لذلك الخلط بين الصعيد البيولوجى والصعيد النفسى فى

الإنسان ، فيقول المفكر المادى جاك مونو مثلا الحاصل على جائزة نوبل فى البيولوجيا فى كتابه الشهير « الصدفة والضرورة » أن مفهوم الدماغ ومفهوم النفس لا يختلطان فى خبرتنا الحالية بمقدار عدم اختلاطهما فى نظر رجال القرن السابع عشر . . ولكن الفكر الحديث ، من جهة أخرى ، وحتى فى تياراته الروحانية ، يتذكر للإنفصام الذى طالما ندد به بين الصعيدين المذكورين ، بل يشدد على وحدة الكيان الانسانى ، وحدة الروح المتجسدة . . أو الجسد المروحن ، وحدة لا إختلاط فيها ولا إنفصام . .

. . فما هى - والحالة هذه - نظرة الفكر الحديث إلى الجسد؟

لقد بين الفيلسوف المعاصر « مالرو بونتى » فى كتابه « ظواهرية الإدراك الحسى » أن الجسد الذى نختبره فى وجودنا الراهن ، أو بعبارة أخرى الجسد المعاش ، يختلف عن ذلك الكيان البيولوجى البحت الذى يدرسه الطبيب أو عالم الأحياء والذى إن هو إلا مجموعة أعضاء ووظائف متناسقة ، هذا الكيان

البيولوجى المحض هو وليد التجريد الذى يقتطع بموجبه كل علم دائرة إختصاصه فاصلا إياه عما قد يرتبط به صميميا فى الواقع الراهن .. عالم الأحياء بداعى إختصاصه مضطر أن ينظر إلى الجسد كما إلى مجموعة أعضاء ووظائف .. ولكنه يختبر جسده وجسد الآخرين على وجه آخر فيحسه مرتبطاً فى الصميم بالوجود الانسانى كله إرتباط الأصوات اللفظية بالمعانى التى تحملها .. هكذا فالجسد الذى نعيشه لا ينحصر فيما يصوره لنا علم التشريح أو علم الفسيولوجيا ، إنما يظهر على أنه المكان الحسى الذى يتأصل منه الشخص ويصبح به حاضرا وعاملا فى الكون وبين الآخرين . بهذا المعنى يقول آبل جانيير فى كتابه (نتروبولوجيا جنسية) « جسدى ليس شيئاً ، إنما هو وضع ، إنه بالفعل وضعى الراهن ، الحسى ، فى الكون ، وضعى فى الزمان والمكان فى هذه أو تلك من الظروف البيولوجية والجغرافية والتاريخية . إننى هذا الوضع بمعنى من المعانى إذ لا يسعنى أن أتجرد منه ، ولكننى بآن متميز عنـــه لانه يسعى أن أعيـــه وأتعهده وأطوره » .

فإذ فهمنا الجسد على هذا المنوال . أى على أنه وضع

الشخص الواهن فى الكون وبين الآخرين أصبحت عبارة الجسد مرادفة - كما فى لغة الكتاب المقدس (مثلا عندما يقول : سيعاين كل جسد خلاص الله أش ٤٠ : ٢٥ ، لوقا ٣ : ٦) . لواقع حياتنا الملموس بكل ما فى هـــذا الواقع من أبعاد بيولوجية ونفسية واجتماعية و. وحية تتفاعل معا فى وحـــدة كيانية صميمية تلك الوحدة التى تفرض ذاتها لا على الفكر الحديث وحسب بل على الطب المعاصر أيضاً إذ أنه يؤكد نزعته النفسية المتزايدة ، على التداخل والتفاعل الصميمين بين العوامل البيولوجية من جهة والعوامل النفسية من جهة أخرى .

ثانياً : ارتباط الجنس بالجســـد

الجنس مرتكز فى الجسم البيولوجى ، ولكنه مرتبط إرتباطاً وثيقا بالجسد بمفهومه العام ويتأثر به .

(١) ارتباط الجنس بالجسم البيولوجى :

الجسم البيولوجى يحمل طابع الجنس فى تكوينه العام . فالذكر والأنثى لا يختلفان فقط من جهة أعضائهما التناسلية بل بكل تلك

المميزات الثشريحية التى تدعى صفات جنسية ثانوية والتى تطبع تركيب الجسم ككل . لا بل أن ارتباط الجنس بالجسد البيولوجى بشكل أعمق فى كون خلايا الجسم كلها حاملة لطابع الجنس فى بنية نواتها . ففى نواة كل خلية من خـــلايا الذكر الانسانى يوجد به كما هـو معلوم ٢٢ زوجاً من الصبغيات تضاف اليها صبغيتان جنسيتان مختلفتان أحدهما عن الاخرى X ، Y بينما يوجد فى خلايا الأنثى الانسانية ٢٢ زوجاً من الصبغيات يضاف إليها صبغيتان جنسيتان متشابهتان X ، X . أضف الى ذلك أن الجنس مرتبط ارتباطا وثيقاً بعوامل هرمونية وخاصة بما تفرزه الغدد الجنسية فى الدم من هرمونات تؤثر إلى حد بعيد على أوان نضج الجنس ومدى حيويته وسر وظائفه المختلفة كما أنها بتأثيرها على المراكز العصبية القائمة فى أسفل الدماغ وخاصة الهيبوثالامس ومسيخ الأنف توقظ الاحاسيس الجنسية وتدفع الى السلوك الجنسى .

وهكذا فالجنس يجد مرتكزه فى التكوين البيولوجى نفسه ، ليس الاعضاء التناسلية وحسب بل فى تركيب الخلايا وبنية الجسد والإفرازات الهرمونية وتحسس المراكز العصبية لها . ولكن

ارتباطه لاينحصر بتلك العـــوامل البيولوجية إنما يتعداها الى ارتباط بالجسد ككل. بالجسد بمعناه الواسع الذى أشرنا اليه

(٢ ارتباط الجنس بالجسد ككل :

الجنس مرتبط بالجسد ككل، أى بواقع الحياة البشرية المحسوس لانه يؤثر فيه عميقاً ويتأثر به مقابل ذلك تأثرا بالغا .

فمن جهة لابد من الإشارة إلى أن للجنس دوراً محورياً فى واقعنا الراهن دوراً يتعدى الممارسة الجنسية بمعناها المحصور رغم أهميتها فى حياة الانسان . ذلك أن الطابع الجنسى الذى رأيناه يطبـــع التكوين البيولوجى حتى فى أدق عناصره يتحدى هذا التكوين ليشمل فى خلاله السلوك الانسانى بجملته . هناك نمط وجود وأسلوب تصرف يتميز به الجنسان سواء على صعيد الفكر أو على صعيد الشعور أو على صعيد المواقف والعمل . وبعبارة أخرى فهناك وجود رجولى ووجود أنثوى يختلفان ليس بتأثير العوامل الاجتماعية وحسب رغم أهميتها البالغة، بل بتأثير العوامل الجنسية أيضاً، وليس بمعناه التناسلى المحصور (وقد أكد فرويد على هذا التمييز ولـكن لم يحسن دوما فهمه) بل بمعناه العام كغريزة حياة إذ هـو حاضر وفاعل كمحرك للنشاطات البشرية قاطبة فى

جنسيته وعاطفيته واجتماعيته وفكريته وروحيته وبنيته .

إذا كان الجنس طابعاً — كما رأينا — للكيان البشرى بكليته ، فانه بدوره يتأثر به تأثرا عميقاً ، فالجنس عند الانسان وان كان يرتكز الى عوامل بيولوجية الا انه يحمل طابع الشخص ككل . إنه — كما قيل — ليس جنساً بيولوجياً وحسب ، بل جنساً نفسياً أو بعبارة أصح نفسياً اجتماعياً . فالعوامل النفسية والإجتماعية تعين إلى حد بعيد مصير الجنس عند الانسان ، هذا ما تثبته ملاحظات علمية عديدة : منها أن الميل الجنسى عند الانسان متحرر الى حد بعيد من الايقاع الهارمونى الذى يتحكم فى الحيوان ، ومما يؤكد ذلك أن الرغبة الجنسية عند الانثى الانسانية غير مقيدة بأزمنة الخصب ، كما هى الحال عامة عند انثى الحيوان ، بل قد تكون حادة فى حقبات عقم سواء فى الدورة الشهرية أو أثناء الحمل أو فى فترة الايائس (menopause) ، ومنها أيضاً أن الجنس العضوى لا ينسجم دائما مع الجنس النفسى فقد تكون لذكر ميول أنثوية والعكس بالعكس دون أن يكون لذلك فى معظم الحالات أسباب عضوية تذكر كاضطراب فى افراز الهرمونات الجنسية وما شاكل ذلك ، بل أسباب نفسية عائدة إلى تاريخ الفرد ونوعية علاقاته فى فترة الطفولة .

ومنها أخيراً أن حالات العجز الجنسي عند الرجل والبرودة الجنسية عند المرأة تعود ، في أكثر الاحيان، لا إلى خلل عضوي بل إلى اضطرابات نفسية متفاوته العمق .

وهنا يمكننا القول أن السلوك الجنسي عند الانسان هو في ادق المقاييس لاتزانه وإنشراحه الشخصي ولسلامة العلاقات النفسية التي تربط بالانسان الآخر بشكل عام .

وهكذا تظهر لنا دراسة الجنس بنوع خاص تلك الوحدة الكيانية (الجسدية) التي يتميز بها الجسد بمفهومه الوجودي العام ، تلك الوحـــدة ذات الأبعاد المختلفة المترابطة . في تلك الوحـــدة الجسدية الحية يشغل الجنس مركزا مرموقا في رأينا، لانه قاعدة للكيان من جهة ومرآة له من جهة أخرى . لذا جاز لنا إذا تحدثنا عن الجسد بمفهومه الشامل أن ندعوه جسداً جنسياً بالنسبة لاهمية الجنس كمصدر لحيويته ومعبر عنها .

(٣) موقف الجسد الجنسي من الوجود :

الجسد الجنسي قابل لإتخاذ موقفين :

+ موقف الانغلاق :

حيث يكون الجسد منهمكا بقضاء حاجياته الخاصة ليس إلا بإزاله التوترات النفسية التي تنشأ فيه ، فلا ينظر الى الكون

والآخرين الا من خلال هذه الحاجات . . هذا يعني ، على الصعيد الجنسي ، أن الآخر هو شيء يستهلك أو يمتلك من أجل ازالة توتر وبلوغ متعة ، دون إقامة وزن لشخصه ، بل اعتباره قابلا للتبادل مع آخر بغية بلوغ الاشباع عينه . جسد الآخر في هذا المنظار يجرد من بعده الشخصي ، ويشيأ ، وبالتالي يفرغ من غنى الحضور الإنساني الذي تجلى فيه لابل يبتر هذا الجسد برده إلى إحدى وظائفه وحصره فيها . . جسد الآخر هو في نظر المجنون عضو تناسلي وما يمت إلى هذا العضو بصلة ، كما أن جسد الأم هو بالنسبة للطفل الرضيع في أول عمره ثديا ليس الآن موضوعا جزئيا كما يقول المحللون النفسانيون .

+ موقف الانفتاح :

الذي يتخطى فيه الجسد هاجس إزالة توترات الذاتية ليتصل بما هو خارج عنه ، ويقيم علاقة حقيقية به تتعدى التملك أو الإستهلاك . . همه — والحالة هذه — لا أن يرد الآخر اليه ليذيبه في ذاته كما تدمج الأطعمة بالجسد الذي يستهلكها بل أن يقيمه في الوجود ، وأن يعترف بكيانه المتميز المستقل وبالتالي أن يتجاوز ذاته للقائه . . عندئذ يصبح

الآخر لا شيئاً بل شخصا فريدا. لا مجرد متعة بل شريكا فى المتعة، لا وسيلة بل غاية، لا ملهاة بل مسئولية . . عندئذ يتخذ جسد الآخر كل أبعاده ويصبح وكأنه حضور الشخص، هذا الحضور الذى يعبر عنه الوجه الانسانى بشكل خاص فى هذا القبيل. ينبغى أن نفهم تلك العبارة البليغة التى سمعت شخصاً ينقلها عن صديق له كان متهتكا ثم اكتشف المرأة كشخص عندما أحب فقال: حتى الآن لم أكن أجد سوى أجساداً أما الآن فقد وجدت وجها.

هذان الموقفان يتجاذبان حتى الجسد الجنسى ويطبعان بالتالى السلوك الجنسى بالالتباس. هناك توتر قائم لا محالة بين عنصر الكثافة وعنصر الشفافية، بين التوقع والمشاركة، بين الحاجة التى تفرق وتذيب كل شىء فى الجسد الذاتى والرغبة التى تجمع دون اختلاط جسدين يتجاوز كل منهما ذاته فى اتجاه الآخر. تغلب أحد هذين العنصرين المتواجدين على الآخر هذا ما يعين مصير المسعى الجنسى الإنسانى.

(٤) فشل الجسد الجنسى المنغلق

فالجسد الجنسى عند الانسان إذا سعى إلى جسد جنسى آخر مقابل ومضاد له، انما يسعى فى آخر المطاف، إلى وحدة فى التكامل .. هذه الوحدة الموجودة ليست مجرد اتصال عضوين

متكاملين ، كما هو الحال عند الحيوان فهذا ليس بوحدة ، انما هو مجرد احتكاك خارجي. الوحدة المرجوة إنما هي أعمق من بكثير . هي إتصال بين كيانين شخصيين من خلال أعضائهما .. ذلك أن الانسان وحده يعي ذاته كـكائن متميز لذا فهو وحده شخص ، و بالتالي فهو وحده يحس بأن بعزلته وبرغبته في تخطي هذه العزلة بملاقاة كائن آخـــر ولـكن هذا اللقاء يفترض تخطياً للذات ، فالشيء لا يلاقي بالحقيقة وانما يستهلك أو يمتلك ، مبقياً مستهلـكه ومالكه على عزلته . لذا فإذا إنغلق الجسد الجنسي على حاجته ولذته ، ولم ينظر إلى الآخر الا من خلالهما ، فهـو فاشل لا محالة في مسعاه وسائر نحو خيبة لا مناص منها ، خيبة تعاش في الجسد أي أنها تصيب الخبرة الجنسية ككل ... الاستمناء كما هو معلوم لا يعطي سوى لذة يكتنفها الفراغ ، لأنه يسعى الى إزالة توتر بمعزل عن الآخر الذي يقتصر حضوره على الخيال في أفضل الإحتمالات .. ولكن الـكثير من الاتصالات الجنسية لا تتعدى كونها نوعاً من الاستمناء المزدوج . اذ يعتبر فيها أحد الشريكين أو كلاهما أن الآخر مجرد ذريعة للذته ، فيضاجع فيها المرء ذاته بالواقع على حد تعبير أندريه مالرو عندما تحدث عن أحد أبطال رواياته . إنه سيتعشق ذاته كنرجس الأسطورة ، فلا يجني من ذلك

سوى لذة قد تكون حارة ولكنها سطحية لا تولد اشباعاً عميقا وطمأنينة وانشراحاً بـــل تخلف شعوراً بالفراغ يثير القلق ويدعو الى الإكثار من العمل الجنسى عل الإكثار منه أو التفنن الآلى فى إتمامه يسمحان ببلوغ السعادة المنشودة . ولكن هذه تبقى سراباً يتوارى لأن الإكثار الكمى أو الإحكام التقنى فى العمل الجنسى عاجز عن التعويض عن النقص الفادح فى نوعيته ، عمل جرد من غايته العميقة ، غاية الوحدة والمشاركة . فالجسد ليس كما يعتقد الكثيرون مجرد آلة يكفى للمـــرء أن يكثر فى استعمالها أو ان يحكم هذا الاستعمال ليجنى منها بصورة آلية أفضل لذة ممكنة انما الجسد كما رأينا مرتبط بالشخص ككل ، فنوعية اللذة عمقها وشمولها وقدرتها على إسعاد الآخر ، كل ذلك مرتبط بموقف لا يعتبر الجسد مجرد آلة . إنما يعيشه فى أصالته الإنسانية كمكان يلاقى فيه حضور بشرى حضورا بشريا آخر .

(٥) الجسد الجنسى لا يبلغ غايته إلا بالحب :

الإلتزام الحقيقى لا يتم إلا اذا تخطى جسد انهماكه بذاته ليلاقى بالفعل جسداً آخر . وبهذا التخطى يتجاوز الجسد محدوديته

ليتصل فعلا بالآخر. فى هذا الوصال ليس مجرد لذة، إنما هو أبعد وأعمق من ذلك سعادة فى اللذة وغنى فى الوجود واتصالا بالكون وشعورا بأن للحياة معنى، فى اتصال كهذا يصبح الجسد أكثر من آلة لذة تدور حول ذاتها فى دوامة الفراغ، يصبح لغة يخاطب بها الآخر، لغة أبلغ وأعمق من لغة الكلام يتكاشف بها الشريكان ويتعارفان صحيحاً حسب المعنى الكتابى لكلمة «معرفة» التى تشير فى الكتاب إلى إختبار وجدانى للآخر. الحب يصبح شفافاً. فيه ومن خلاله يتلقى الشخصان حركات الجسد فتصبح حاملة لمعان روحية لانها تصبح معبرة عن عطاء متبادل. ذلك هو الحب الذى لا يضاف الى الجسد فى الخارج كتكملة له أما هو الشرط الاساسى لكى يحقق الجسد الجنسى سعيه وأمنيته. هناك لغو فى أيامنا حول ما يسمى «بالانسجام الجنسى» الذى يعتقد الكثيرون انه عملية آلية فى الاساس وان السبيل الى تأمينه هو بالتالى تعلم وممارسة أساليب تقنية فى الاتصال الجنسى تؤمن الاشباع للطرفين ومن ثم يتناقضون مايقوله أخصائيو علم الجنس فى أيامنا بان الحب ومايفترضه من اهتمام بالآخر ورغبته فى إسعاده واطمئنانه هو العنصر الاساسى من أجل بلوغ هذا الاشباع المتبادل وان اتقان الاساليب الجسدية يصبح ذا جدوى إذا كان مسخرا لتخاطب أفضل، لمشاركة أكثر صميمية إلا اذا تحول الى تقنية أنانية

أستغل الآخر ولكنها تعجز عن الاتصال به . مجمل الكلام أن الجنس فاشل إذا لم يتخط الجسد ذاته بالحنان، أما اذا تحققت الوحدة بملئها بين رجل وامرأة، فالجسد يهب مقابل ذلك سخاء ملوكياً . ولقد ادرك ذلك لحسن الحظ كثيرون من شباب عصرنا في هذا الغرب الذي نتوهم غالباً انه إباحي بجملته .. أورد على سبيل المثل نتائج استفتاء قامت به مؤسسة « SOFRES » ونشرت نتائجه مجلة الاكسبريس الفرنسية في مطلع هذا العام. استجوب في هذا الاستفتاء شباب تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢٠ عاما من مختلف فئات الشباب الفرنسي وقد لوحظ أن ٢٢ ٪ فقط منهم يعتقدون أن شباباً في عمرهم يحق لهم أن يمارسوا علاقات جنسية دون حب ، الاكثرية ٤٢ ٪ لا تجيز علاقات في هذا النوع وان كانت تسمح بها، واذا كان ٢١ ٪ منهم فقط يعتقدون أنه الفتاة يجب تبقى عذراء حتى الزواج فان ٤٦ ٪ يعتقدون أن ينبغي لها أن تحتفظ على عذريتها الى أن تجد شابا يحبها حقيقة . هكذا وعى اكثرية هؤلاء الشباب، رغم رفضهم لكثير من التقاليد الخلقية ، الارتباط الصميمي القائم بين الاكتمال الجنسي من جهة والحب من جهة اخرى ، هنا لابد أن نشير الى الأبعاد التي تتجلى فيها الخبرة الجنسية اذا نظرنا اليها بتعمق في

ضوء الإيمان . قلت أن الجسد إذا انغلق على نفسه فشل فى مسعاه الجنسى والآن نضيف أن ذلك الفشل إنما هو صورة عن الموت وعبارة « الموت » فى الكتاب المقدس تشير كما هو معلوم إلى كل أنواع الفشـــل . وبالفعل فان الجسد المنغلق لسد حاجاته ســـائر إلى الموت الذى سينهى تلك الحاجات كلها التى لم يكن لها من مبرر سوى المحافظة على استمرار هذا الجسد فى الوجود الترابى . لا بل أن فرويد يقول لنا بعمق أن إزالة القوى التى تدعو اليها حاجات الجسد إنما هى عودة إلى سكون وجمود المادة كما كانت قبل الحياة ، وأن ما يدفعنا بالتالى إلى بلوغ اللذة من خلال إزالة التوتر إنما هو « غريزة الموت » العاملة لا شعوريا فى أعمـــاق جسدنا هادفة إلى رده إلى الوضع اللاعضوى . كل ذلك حـــرى بأن يؤكد لنا أن جسد الحاجة المنهمك فى إزالة توتراته إنما هو سائر حتما فى طريق الموت . هذا ما يلتقى بنظرى مع الكلمات الكتابية « اللحم والدم لن يرث ملكوت السموات » وأيضا « الأطعمة للجوف والجوف للأطعمة والله سيبيد هذه وتلك » فالجوف أبلغ رمز للجسد الاستهلاكى المنغلق على قضاء حاجاته والذى سيزول وإياها « لأنه من التراب وإلى التراب يعود » . أما إذا تخطى الجسد ذاته باتجاه الآخر فانه يتحرر لمحدودية حاجاته ويخرج من عزلته ويتصل بتيـــار الحياة الشاملة بإتصاله بالآخر . وإذا اتصل بتيار الحياة فانه

يتصل من حيث يدرى أو لايدرى بالله مصدر الحياة . باندفاعه في طريق الحب يتصل بالله، ألف الحب وياؤه . بهذا المعنى يقول المطران جورج خضر أن ملتقى العروس بالعريس كل لقاء صميمي إنما هو هجرة إلى الله . بتلك الهجرة ، بذلك الخروج ، ينجو الجسد من قوقعته ، يتخطى وضع « جسد الموت » الذي كان يشكو الرسول منه لينطلق منذ الآن في رحاب « القيامة » ، إنما هو صورة ومقدمة لجسد القيامة لأن المحبة هي طريق القيامة الوحيد .. نحن نعلم أننا إنتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة » . هنا يتجلى السر الفصحي الذي تتحمله وتترجمه كل خبرة انسانية أصيلة . الجسد الجنسي يموت عند محدودية الحاجة التي تشتهي الآخر لتستهلكه وتملكه . فينجو بذلك من قوقعة العزلة المخيفة . ويتحول إلى « جسد رغبة » منفتح على الآخر وعلى الله . فيجد الحياة والفرح ويذوق شيئا من طعم الأبدية .

من هنا نفهم أيضا لماذا نستحضر الكنيسة في الزواج ، وهو الإطار الطبيعي للحب البشري المكتمل ، الرب المصلوب والنادض من بين الأموات ، لترد الحب البشري المتعثر الى نموذجه الفصحي ، نموذج الحياة الظافرة على الموت بالموت وقيامته في خط القيامة .

(٦) الخلاص هو فى انفتاح الجسد الجنسى لا فى محاولة الفناء :

لكن إيماننا بالقيامة، بقيامة الأجساد، يقتضى أن يكون موقفنا من الجسد موقف اعتبار وتعهد لا موقف تنكر ورفض لذا كان لابد لنا فى نهاية هذا الحديث الاشارة إلى انحراف يهددنا . فإذا كان انغلاق الجسد الجنسى على ذاته وتقوقعه البرجسى ضمن دائرة حاجاته موقفا يمنع عن عدم نضج على الصعيد النفسى أو الروحى أو كليهما معا، واذا كان هذا الموقف يحكم على هذا الجسد بالفشل فى بلوغ امنيته العميقة ألا وهى التحرير من عزلته والاتصال بغنى الحياة ، فهناك موقف لا يقل خطراً عن هذا وليس بأقل من منه بعداً عن النضج ألا وهو محاولة الغاء الجسد بما يحمله من نزعة جنسية والتصرف كأنه غير موجود أو كأن وجوده عرضى لا يمت بصلة إلى جوهر الإنسان . تلك هى « الملائكية » التى كثيرا ما تتستر بتبريرات دينية لتخفى وراءها عوامل لاشعورية بعيدة كل البعد عن روح الانجيل .

تلك العوامل التى يقتضى تحليلها بحثا طويلا قائما بذاته ، يمكن ردها فى آخر المطاف الى علاقة الجنس بالموت ولتلك العلاقة عدة وجوه أذكر منها فيما يلى اثنين :

فمن جهة ، يعنى القبول الصميمى للجنس أن يقبل على أنه آخذ الحياة من السلف لينقلها الى الخلف وبعبارة أخرى أنه مجرد ناقل لحياة اعطيت له ولكن ليست له الحياة فى ذاته أى انه ليس الله .

ومن جهة أخرى فقبول الجنس يعنى أن يقبل الإنسان أنه ليس كاملا بحد ذاته ، إنما لا يكتمل إلا بآخر ، أن يقبل بأنه كائن منفصل (هذا الإنفصال هو المدلول الاصلى لكلمة Sexe) لا يحقق كماله إلا باتحاده بآخر ، وبأنه لكى يبلغ هذا الاتحاد يجب أن يتخطى ذاته ، أن يخرج من ذاته ، أن يمر إذاً بخبرة شبيهة بخبرة الموت (عبارة «خروج» فى الكتاب تشير الى الموت) ولكن ارتباط الجنس بالموت أمر مريع بالنسبة لترجسية الإنسان ، تلك الترجسية التى هى من رواسب الطفولة فيه .

فالطفل فى أول عمره يشعر بسبب عدم نضجه من جهة واهتمام الآخرين الدائم به من جهة أخرى ، كأن جسده مركز الكون ومحوره ، إنه لا يدرك حدود هذا الجسد الزمنية ولا المكانية ولا يميزه كغاية عما يحيط به لذا يشعر وكأن هذا الجسد يحوى فى ذاته الوجود كله ويتحكم بالكون قاطبة ، ذلك ما لاحظه المحللون النفسيون فى تحريهم لرواسب الطفولة فى نفسية مرضاهم ،

وهذا ما أكدته بوسائل أخرى، ملاحظة الاطفال المباشرة التى أجراها بياجية Piaget ومدرسته، مثلا ان اكتشاف الجنس الذى يتبلور فى المرحلة الأوديبية اولا (بين الثالثة والسادسة من العمر) ثم فى المراهقة ، مرادف والحالة هذه لإكتشاف محدودية لا يكتمل إلا بجسد آخر متميز ومختلف عنه .

لكن المهم أن يتعهد المرء هذا الإكتشاف وأن يقبل به، إلا أن هذا القبول مكتنف بالصعوبات . ألم تظهر المحللة النفسية هيلين دوتش فى كتاب حديث لها عن مشاكل المراهقة ان ظاهرة الغاء الفوارق فى الزى والمظهر فى جماعات المراهقين قد تشير الى محاولة لاشعورية لطمس الفارق الجنسى، ذلك الفارق الذى يؤكد محدودية الجسد وبالتالى يثير جزع الموت !!

فإذا قبل المرء بمحدودية جسده أو بعبارة أخرى اذا قبل بالموت ، فعند ذاك يمكنه ان يتخطى ذاته ليلاقى آخر ، عند ذاك يصبح قادرا على إقامة علاقة صميمية بالآخر سواء على الصعيد الجنسى أو على صعيد أنسانى . ولكن المرء قد يتمسك لا شعوريا بترجسيته الطفلية بذلك الميل الى اعتبار ذاته محوراً للكون ، عند ذاك يبدو له الجسد، بنزعته الجنسية وطابعه الجنسى خطرا عليه لأنه يذكره بأنه ناقص ، منفصل ، محدود، وبعبارة إجمالية يذكره بأنه مائت . لذا يمكن القول بأن الخوف من الجسد

هو فى الأعماق خوف على الجسد ، رفض الموت الذى لابد للجسد أن يمر به . قد يتخذ هذا الخوف شكل التزمت ، شكل احتقار الجسد بداعى روحانية مزيفة ، وقد يتخذ أيضاً شكل النهتك ، شكل حصر العلاقات الجنسية بمظاهرها الأكثر سطحية كى يلتزم الفرد بها ويخرج من ذاته . ولكن هذا الخوف من الجسد (أو على الجسد) أيا كان مظهره ، يعقم على كل حال فى المرء طاقة الحب . كل حب . الحب بمعناه الجنسى ، المحبة الإنسانية بشتى مظاهرها ، محبته لله نفسها . إنه يؤدى إلى تقوقع يمنع الجسد من تخطى ذاته فى إتجاه الكون والآخرين وبالتالى يجعل الانسان على هامش الحياة الحقيقية . إنه يحقق لك المفارقة الرهيبة ألا وهى أن الإنسان يحجم عن الحياة لأنه يخاف من الموت الذى هو بعد من أبعادها . أن يغلق على نفسه فى الموت لخوفه من الموت مما يذكرنا بما تقوله الرسالة إلى العبرانيين عن الذين من خوف الموت كانوا كل حياتهم تحت العبودية . فإذا اتخذ خوف كهذا مظهر الملائكية وفلائكيته ، لا تترفع عن الجسد إلا فى الظاهر لأنها بالواقع تخدم مصالح الجسد ، الجسد الذى يأبى أن يقر بمحدوديته ، فينغلق على ذاته ليحافظ على حلمه الطفلى القديم ، حلم الألوهة الذاتية .

هذا ما يتجاوب على ما أظن مع أقوال الرسول عندما يحذر مسيحيي كولوسي من التزمت قائلا لهم : تلك هي وصايا الناس وتعليمهم ! قد يكون عليها ظواهر الحكمة بعبادتها المصنعة ، والتواضع ، وقهر الذات ولكنها لا قيمة لها ولا تؤول إلا إلى إرضاء الجسد (كولوسي ٢ : ٢٢-٢٣) .

مجمل الكلام أن ما يسمى بالاستسلام للجسد أو ما يسمى باغتيال الجسد واحتقاره إنهما هما كلاهما في كثير من الأحوال وجهان متضادان لواقع واحد . وافع النرجسية التي ترفض القبول بمحدودية الجسد وبحاجته إلى الآخر كي يكتمل ويحيا . كلاهما يلغي وجود الآخر ، يحول دون رؤيته حضور الآخر الشخصي في جسده ، فالماجن لا يرى في جسد الآخر سوى شيء يمتلك والمتزمت لا يرى فيه سوى خطأ يجتنب ، كلا الموقفين مظهر لتلك المحاولة التي عبر عنها الكتاب عند سرده لحادثة سقوط الجدين الأولين ، محاولة تأليه الذات بمعزل عن الآخر .

خلاص الجسد الجنسي لا يكمن إذاً لا في المجون ولا في التزمت . إن الحب الجنسي الأصيل يعاش في الزواج سراً لكي

يزرع فى صميمه قوة صليب الرب وقيامته فتساعده على الاستمرار والنمو فى طريق الحب الذى ما هو إلا موت يحيى . فى الزواج يتمرس الجسد الجنسى على تخطى « الحاجة » التى تدفع إلى استهلاك الآخر، إلى « الرغبة » التى تعترف بوجوده واستقلاله وذلك عبر الحياة المشتركة وما تقتضيه من جهاد قاس أحياناً تدعمه النعمة الإلهية من أجل اعتبار الآخر غاية وليس وسيلة ، شخصاً وليس شيئاً ، شريكاً وليس ملكاً وإله . للقاء الأجساد دور لا يستهان به فى مسيرة الحب هذه فهو يترجم الحب الزوجى بأبلغ ما يمكن من تعبير ويدعمه ويغذيه . ولكنه بدوره لا يكون لقاء بالفعل ولا ينجو من التفاهة والرتابة القتالين ، إلا إذ أغتذى من الحب باستمرار وعبر حركة المكاشفة والمشاركة والعطاء المتبادل فى كافة ميادين الحياة الزوجية .

(٧) العفة المكرسة :

ولكن هناك طريقاً أخرى سار فيها الرب أولا فى حياته بالجسد ورسمها نموذجاً لكثيرين سلكوها من بعده إنها طريق العفة المكرسة . تاريخياً أحاط بهذا الطريق كثير من الإلتباس ولا يزال إلى الآن ولكنها فى أصالتها الإنجيلية بعيدة كل البعد عن ذلك الذى كان غريباً عن حياة السيد ، بعيدة كل البعد عن

ذلك التزمت الذى تصدينا له وسميناه « بالملائكية » . بعيدة كل البعد عن حياء السيد كما يتضح فى علاقاته الحرة الصافية المتفهمة بالنساء .

إن المكرس حقا لا يحاول أن يتجاهل وجود جسده الجنسى لأنه يعرف أنه وضعه الإنسانى الراهن . إن الله وحده ترفع عن الجنس لأنه وحده كامل بذاته ، إنما يجتهد المكرس حقا، بنعم القيامه التى زرعت فيه والتى يستمدها بتواضع وحرارة، أن يتجاوز قدر المستطاع عنصر الإنغلاق فى هذا الجسد لكى تتحقق على أكمل وجه طاقات الإنفتاح الكامنة فيه .. إنه يتخلى عن الحب الجنسى لا لكى يكتفى بذاته ويتملك ذاته ويحتمى فى الآخر بل لكى يتجاوز فيه حبه ، قدر الإمكان ، كل اكتفائيه وتملك وخوف . إنه لا يتخلى عن إقامة علاقة خاصة بزوجة وعائلة إلا لكى يكون قلبه منفتحا للكل متقبلا للكل معطياً للجميع . انه لا يحاول بتر الجنس فيه هذا أمر مستحيل ولا يتنكر له ولكنه بتخليه عن الممارسة الجنسية يسير فى طريق إعلاء الجنس، إلى تحريره قدر الإمكان من عنصر الإنطوائية الكامنة فيه، هذا الإعلاء الذى وضعه لنا التحليل النفسى ، عملية غامضة تجرى إلى

قد بعيد بشكل لا شعورى ولا إرادى . لذا فالمكرس حقـــا لا يعتمد على إرادته بقدر ما يعتمد على إنفتاحه المتواضع لذلك الحب الإلهى ، ألف الجنس وبائه الذى ظهر لنا فى يسوع المسيح جسدا ظافراً على الموت بمروره الطوعى فيه . نحـــن نؤمن ان جسدنا الجنسى الذى هو وضعنا الراهن على هذه الأرض قد طعم بالمعمودية على جسد الحب لأنه أخلى ذاته بالموت متخليا عن كل تملك لذا فسبيلنا سواء سلكنا طريق الزواج أو طريق العفة المكرسة ، أمارسنا العلاقات الجنسيه أو لم نمارسها ، أن نجعل أجسادنا فى درب الحب كى يحولها الرب ويجعلها على صورة جسده ، أجساد قيامة ، ومساكن لله .

ملخص الكتاب

١ ــ يحدد الكتاب مفهوم الجسد بأنه الشخص ككل ويستنكر الفصل بين البدن والنفس وينظر إلى الإنسان كوحدة متفاعلة .

فالجسد واقع حياة الإنسان فى أبعاده البيولوجية والنفسية والإجتماعية والروحية المتفاعلة معا فى وحده كيانية .

٢ ــ أن الجنس وإن كان يظهر بوضوح فى التكوين البيولوجى فانه يتعدى الأعضاء التناسلية ليشمل تركيب خلايا الإنسان وافرازاته الهرمونية وكيان الجسد ككل .

بل أنه ينظر إلى الجنس على أنه نمط وحدود وأسلوب تصرف فهناك وجود رجولى ووجود أنثوى وان العوامل النفسية والإجتماعية وخاصة فى السنين الأول من عمر الإنسان تحدد مصير الجنس عند الإنسان .

٣ ــ الإنسان فى جنسيته (أو ما يسميه الجسد الجنسى) يتخذ أحد موقفين إما موقف الإنغلاق أى موقف الأنانية والتمركز حول الذات أو موقف الإنفتاح أى موقف الحب

والبذل والعطاء وتجاوز الذات وهو يقرر أن موقف الإنغلاق يفشل فى تحقيق المتعة المرجوة بل على العكس يعمق العزلة ويدفع شعور الإنسان إلى مزيد من اللذة الحسية هذه التى قال عنها الانجيل كل من يشرب من هذا الماء يعطش .. أما موقف الإنفتاح والحب فهو وحده الذى يعطى لذة ذات بعد أعمق وأشمل ويقدر أن يسد الآخر الذى يثبته الحب الحقيقى .

٤ - يضغط المؤلف بشدة على رفض تشيىء الآخر أى جعله مصدر لذة فقط أو ملهاة ، ويؤكد أن الجنسية فى الإنسان لا تبلغ غايتها إلا بالحب والحب هو تخطى الجسد ذاته باتجاه الآخر وانه فى اندفاعه فى طريق الحب يتصل بالله الذى هو ألف الحب ومأوه ، والحب وحده هو أمل الإنسان فى الخلاص من العزلة وهو الوسيلة الوحيدة لتخطى وضع جسد الموت ليلوغ عربون جسد القيامة . فالمحبة هى طريق القيامة الوحيد .

٥ - يستنكر الكاتب التدين المريض الذى يحاول إلغاء الجسد ورفضه واحتقار الجنسية فى الإنسان بدعوى الملائكية لأن هذا الرفض فيه كبرياء خفية وهى عدم قبول الإنسان لنفسه كناقص .

٦ — ومن اللمحات والالهامات الروحية التي يبرزها الكتاب ان الجنس يؤكد محدودية الجسد مما يثير جزع الموت وهذا الخوف يتخذ شكلين أما الشكل الماجن الذي يلقى نفسه في دوامة اللذه الجنسية أو شكل المتزمت الذي يحتقر الجسد بداعي روحانية مزيفة وكلا الموقفين وجهان متضادان لواقع واحد وهو تمركز الانسان في ذاته ووقوعه تحت مخافة الموت والحل الوحيد أن يتخطى الانسان هذه الإنفلاقية الى طريق القيامه اما بالحب الجنسي الأصيل كما في سر الزيجة أو بالتكريس الكامل في البتولية المكرسه للحب الالهي التي هي صورة مسبقة للحياة الملكوتية التي فيها لايزوجون ولايتزوجون بل يكونون كملائكة الله .

خاتمة

[أهم المبادىء والاتجاهات الفكرية
التى جاءت فى كتابات المفكر العربى
الاستاذ كوستى بندلى - عضو حركة
الشبيبة الأرثوذكسية بسوريا
ولبنان - عن موضوع الجنس].

(١) أن الجنس فى الانسان ليس مجرد حاجة بيولوجية بحتة وإنما هو ككل حاجات الانسان - وبالأخص الجنس - مرتبط بنوع خاص بالشخصية ككل فهو يتأثر إلى حد بعيد بالعوامل النفسية والإجتماعية .

(٢) أن الجنس فى الإنسان يهدف الى اقامة شركة مع الآخرين فالعمل الجنسى هو أساساً عمل اجتماعى . فالجنس عند الانسان يبغى ما هو أبعد من زوال التوتر العضوى ،

إنه يبغى الإتصال بالآخر . فالإنسان يشكو دائماً من العزلة وهو يسعى من خلال سلوكه الجنسى الى ازالة تلك العزلة باتحاد كامل بكائن آخر يكمل نقصه .

فالنزعة الجنسية تدفع الرجل والمرأة أحدهما نحو الآخر بغية أن ينصهرا من خلال تداخل الأجساد فى لقاء صميمى ما بعده لقاء .

(٣) فرادة الانسان فى أنه يدرك ذاته ويدرك الآخر ويدرك الجنس . لذا لم يعد نشاطه الجنسى مجرد أداة لاستمرار النوع بل أصبح مسخراً لأهـــداف الذات الإنسانية . والجنس من حيث أنه نزعة إتحادية لايستطيع أن يبلغ مرماه إلا بتأكيد شخص الآخر .

(٤) الجنس فى الإنسان مهـــدد دائما بان يطبع بالطابع الإستهلاكى وهو اتخاذ اللذة غاية . وتشييء الآخر أى اعتباره شيئاً لا شخصاً ، ومتعة لا شريكا ، ووسيلة وليس غاية ، وملهاة وليس مسئولية .

هكذا يتر الجنس عند الاباحيين من بعده الإتحادى وأصبح مادة تستهلك كما يستهلك الكحول . وأصبح

الإتصـــال الجنسى سهـــلا للغاية ولـكنه أصبح تافهاً أيضاً إذ أفرغ من معناه الانسانى العميق . . معنى اللقاء بالآخر . وهذه السهولة جردت العمل الجنسى من كثافته وأفقدته زخمة العاطفة وحولته إلى مجرد انتفاضة أجساد لا فرح فيها وحتى لا لذة حقيقية .

(٥) بالحب وحده يصل الجنس الإنسان بالآخر مع المحافظة على استقلال كل من الشريكين .. الحب لا يبطل أهمية العلاقة الجنسية ولـكنه يجعل منها وصالا : أنه لا يبطل اللذة ولـكنه يعطيها كل أبعادها إذ يجعلها منفتحة على ما هو أعمق منها وأبعد . بالحب وحده تتخذ العلاقة الجنسية كل أبعادها لأنها تصبح لغة تخاطب .

(٦) ميزات الحب أنه يعتبر الآخر مهما بحد ذاته ويكشف الآخر فى فرادته ويتعهده فى بعده الزمنى إذ يتجلى الفرق بين الحب والجنون . فالحب يرتسم فى الزمن أما الجنون ففى اللحظة . الحب الحقيقى شيمته الإستمرار لأنه تركيز على اللقاء لا على اللذة .

(٧) هذا الحب الذى به يحقق الجنس مرماه الإنسانى الإسعادى هو ما يعطى الجنس قيمته الحقيقية .. والحب لا يتحقق إلا فى إطار النضج ومعايير النضج هى الإنتقال من عشق الذات إلى حب الاخر والإنتقال من مركزية الأنا إلى الإعتراف بالآخر والإنتقال من الإستيلاء إلى العطاء .

(٨) الزواج إطار الحب لأنه وعد يكرس أمام الملأ صفات الحب الأساسية ولأنه مكان نمو الحب وتعميقه ولأنه مكان خصب الحب . ولكن الزواج لا يحافظ على إصالته إلا إذا بقى فى إطار للحب وتعبيراً عنه . هذا الإطار لا يستمد قيمته إلا من المضمون . الخطر الذى يهدد الزواج بالزوال أو بفقدان فحواه العميق هو اعتباره عقداً يعطى كلا من الزوجين حق الملكية على الآخر .

(٩) العفة مرتبطة بالحب ارتباطاً وثيقاً والفرق بين العفة الحقة والعفة الزائفة أن هذه تخاف من الجنس ومليئة بالكبت بينما العفة الحقة هى تعهد واع للجنس وتخطى الخوف واتجاه أصيل إلى الآخر وامتناع عقلى ووجدانى وتعبير عن التزام كيانى حر .

(١٠) العفة قبل الزواج هى رفض التفريط بالجنس عن ممارسته خارج إطاره الإنسانى الكامل؛ وهى فى الزواج تتحدد بأن يكون العمل الجنسى معبراً عن الإهتمام الكلى بالآخر فالزواج بتدنس إذا أصبح اتحاد الزوجين الجسدى مجرد إشباع غريزى حيوانى لحاجة جسدية بحتة ، وإذا تحول هذا الإتحاد إلى عملية آلية اغتيادية، وإذا أصبح السعى وراء اللذة هدف الزوجين الوحيد فى جماعهما أى إذا أصبحت اللذة صنما وهوساً عوضاً أن تكون تعبيراً عن المحبة المتبادلة .

(١١) تربية العفة تتحدد فى قبول الجنس وضبط النزعة الجنسية بغية إخضاع زخمهـــا الغريزى للقيم الإنسانية وتنمية الإتجـــاه إلى الاخرين وتخطى النرجسية الغريزية فى الإنسان وذلك من خلال التربية العائلية والمدرسية والدينية .

(١٢) الله متعال على الجنس لأنه كامل فى ذاته ، والجنس فى إصالته مكان حضور إلهى إذ يقول ذهبى الفم ، عندما يتحد الزوج والزوجة فى الزواج لا يظهران بعد كشىء أرضى بل كصورة الله نفسه ، ويقـــول ثيوفيلوس

الأنطاكى أن الله خلق آدم و حواء ليحقق الحب الأكبر بينهما عاكسين سر الوحدة الإلهية . الحب يحقق إذا - فى وحدة المحبين - صورة الثالوث فيصبحان أيقونة الله .

(١٢) من عاش العفة المكرسة على حقيقتها لا يغلق قلبه دون الحب ، إنما يعرف الحب من ينبوعه الإلهى و يبتهج به وسط جهاده . إنه يحس بأنه على هامش الحياة مقصى عن الحب بل يختبر انفصالا عمن هو ملء الحياة والحب .

رقم الايداع ٤٦٣٨ / ١٩٧٣

يطلب من
المكتبة المرقسية بملوى — ص. ب ١٣
وجميع المكتبات المسيحية